

عرض لكتاب

كتاب "عرب الأهوار"

THESIGERM Wilfred.- Les Arabes des marais (The Marsh arabs),- Tigre et Euphrate.- traduction de Pauline VERDUM.- Paris, Plon, 1983.- 260 p.

إن كتاب "عرب الأهوار" لصاحبه و يلفريد ثيزيجر لواحد من روائع أدب الرحلات التي تؤرخ للحياة الاجتماعية بجنوب العراق في النصف الأول من القرن العشرين. هي حياة قبلية شبه بدائية تغطي فيها علاقة الإنسان بالطبيعة بشكل بارز، القرى مستقرة بيوتها على اليابسة بمحاذاة المساحات المائية أو البيوت قائمة على أرضية من قصب تطفو على الماء. المجتمع مكتف بإنتاجه إلا فيما نذر. الأرز و الخضر و السمك و الطيور و حليب الجاموس هي أهم الأغذية. و لا ترتبط القبائل بالمدينة إلا بخيوط واهية، ناهيك عن السلطة السياسية. لا يذهب الأفراد إلى المدينة إلا لاقتناء السكر و التمر و الشاي و الإصباغ و الأكسية.

إن هذه الأهوار التي تمتد جنوب العراق تشمل أجزاء من 3 ولايات : الناصرية و ميسان و البصرة و أهمها هور الحمار، و هور الشويجة و هو الجبايش، و تجتاز الحدود العراقية الإيرانية نحو الأهوار.

يغوص الكتاب و يلفريد ثيزيجر في أعماق الحياة اليومية لعرب الأهوار و يسجل وقائعها كما تقع أثناء حركة السكان و أثناء ثباتهم، فكان بذلك كتابه تصويرا دقيقا صادقا لهذا الجزء من العالم الذي ظهرت فيه أولى الحضارات الإنسانية، إذ حقق السومريون فيها أكبر إنجاز حضاري، حيث تمكنوا من التحكم في الفيضانات و جففوا المستنقعات و أقاموا المدن و الدول مثل "أور" و "أكد" و "ميسان" و "الوركاء" و فيها طوروا الزراعة و دجنوا الحيوانات و شكلوا الجيوش، و حصنوا المدن و أعطوا مكانة للدين و نصبوا له رجالا و اخترعوا الخط. فلا عجب أن تكون هذه الصحاري

المائية موضوعا للأساطير الكبرى مثل جلجامش أسطورة الطوفان العجيبة.

نعم كان مضمون كتاب "عرب الأهوار" صورة بديعة عن مجتمع بسيط و متباين "عرشه على الماء" تبنى صاحبه حياة المجتمع مدة طويلة : عرف سادته و موامنه و عبيده، و جال بين كل قبائله : الفرطوس و آل عيسى، و بني لام و البو محمد السودان و السواعد و البهادل و بني مالك، و استنبطن نمط معيشتهم.

تتباين معيشة هذه القبائل حسب المناطق و الأعراف المرتبطة بالمبادلات التجارية. فمن خلال الكتاب يمكن التمييز بين مجموعتين: المجموعة الكبرى و تشكل القبائل التي تتخذ الأرز غذائها الأساسي، و الخضر و السمك و الطيور، و تقيم هذه القبائل في سكنات من قصب على ضفاف المياه. أما المجموعة الأخرى فنققات من حليب الجاموس و مشتقاته، و تقيم في سكنات عائمة.

البيع منبوذ من "عرب الأهوار" الشرقية مع إيجابهم المقايضة و يسمون مرببي الجاموس "معيدان" (مفردها معيدي) و يحتقرونهم لأنهم يبيعون ما فاض عن حاجتهم من حليب و مشتقاته.

أهم الشخصيات في القبيلة : الشيخ و المومن و السيد. الأول حاكم القبيلة و صاحب نسب صريح فيها و صاحب أملاك. المومن هو رجل الدين المثقف، السيد هو من كان نسبه يعود إلى الرسول. بالإضافة إلى هذا هناك مؤسسة تميز القبيلة هي "المضيف" و هو بيت مادة بنائه الأساسية القصب، إلا أن ما يميزه هو حجمه الكبير عن غيره من البيوت و طائفه الاجتماعية يجتمع فيه رجال القبيلة بحضور الشيخ أو المومن أو السيد في جميع المناسبات يتدارسون أوضاع قبيلتهم و ينظمون شؤونها يتخذون بشأن حياتها القرارات الهامة اقتصادية كانت أم سياسية أو اجتماعية : فيه يدعون إلى التعاون على فلح الأرض ملكية العشيرة و حصاد الأرز و درسه بصورة إلزامية أخلاقيا و فيه تفض الخلافات بين أفراد القبيلة.

و المضيف ملجأ للغرباء و عابري السبيل، فهو عنوان القبيلة و جسر العبور إلى مجالاتها الحيوية الأخرى. و قد يختلف المضيف

من قبيلة لأخرى من حيث نمطه المعماري و عدد أقواسه و ارتفاعه و زخرفة بابه الأمامي و الخلفي و لكن وظائفه تبقى هي في كل قبيلة. و في المضيف فإن القهوة هي شراب المجلس أو الجالسين، حتى لأن اسمها لم يرتبط إلا بالمضيف أو بيوت الميسورين.

تتصل قرى الأهوار بالمدينة عن طريق الماء بواسطة "شختور" أو "طرادة" أو "بلم" أو "مشحون" أو "دانك" أو سفينة و لا يذهب الناس إلى المدينة إلا لاقتناء القليل بمقابل عيني فإذا باع شخص السمك بالنقود سمي بربريا و إذا باع الخضر سمي حواسا، و من حمل هذه الصفات تجنب الناس مصاهرته لاحتقارهم الحرفة التي منها يعيش.

هكذا فإن و يلفريد ثيزيجر يرسم لعرب الأهوار و لحياتهم اليومية لوحة أدبية رائعة لا غنى للباحث في الأنثروبولوجيا الإجتماعية و الثقافية عن مطالعة مادتها و ملامحها لفهم الشعوب و عبقرتهم في استجلاء الوسط الأكثر بدائية و تحويل عناصره إلى حضارة : أليست العبقرية أن نضع مما هو بدائي فنا؟

محمد حمداوي